بيتر هاندكه

السيف الثاني

قصة من شهر مايو/آيار

ترجمة: نيڤين فائق

لأجل رايموند فلينجر

فَقَالَ لَهُمْ: «لكِنِ الآنَ، مَنْ لَهُ كِيسٌ فَلْيَأْخُذْهُ وَمِزْوَدٌ كَذلِكَ. وَمَنْ لَيْسَ لَهُ فَلْيَبِعْ ثَوْبَهُ وَيَشْتَرِ سَيْفًا .لأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَتِمَّ فِيَّ أَيْضًا هذَا الْمَكْتُوبُ: وَأُحْصِيَ مَعَ أَثَمَةٍ. لأَنَّ مَا هُوَ مِنْ جِهَتِي لَهُ انْقِضَاءٌ».

فَقَالُوا: «يَا رَبُّ، هُوَذَا هُنَا سَيْفَانِ». فَقَالَ لَهُمْ: «يَكْفِي.»!

(لوقا: 22-36-38)

I. انتقام متأخر

"هذا إذن هو وجه المنتقم!" – قلت ذلك لنفسي، عندما كنت أستعدُّ، في ذلك النهار المشهود، لكي أبدأ الطريق، وأنا أنظر إلى نفسي في المرآة. خرجَت هذه الجملة صامتةً تمامًا من داخلي، وفي الوقت نفسه تلفظت بها: حركت - بينما نطقت بها - شفتَيّ بصورة أكثر من واضحة، كأنني أردت أن أقرأها من خلال صورتي في المرآة، وأحفظها عن ظهر قلب، مرة واحدة وإلى الأبد.

مثل هذا النوع من الحديث الذاتي - الذي أقيمه مع نفسي عادةً، في كل الأحوال، وليس فقط منذ الأعوام الماضية، وفي كثير من الأحيان على مدى أيام – اختبرته في هذه اللحظة كشيء متفرد بالنسبة لشخصيتي، بل بالأحرى كشيء خارق، خارج عن إرادتي، بكل معنى الكلمة.

هكذا تكلم وبدا كائن بشري، كان بصدد أن يخرج من البيت، بعد عدة أعوام من التردد، والتأجيل، بل والنسيان كذلك في هذه الأثناء، لتنفيذ الانتقام المُستحَقِّ منذ زمن – ربما – بيده، ولكن من ناحية أخرى لمصلحة العالم، وباسم قانون كوّني، أو ربما عاريًا – لماذا "عاريًا"؟ – لكي يُفزِعَ، ومن ثم يوقظَ رأيًا عامًا ما. أيهم؟ أي واحد منهم.

العجيب في الأمر، هو: أنني، بينما كنت أراقب نفسي، أنا ذلك "المنتقم"، في هيئة من الهدوء، وكشخص، وكمثال يفوق سائر الأمثلة الأخرى، أتفحص هيئته لمدة ساعة كاملة، لاسيما العينين، اللتين لم تكد تصدر عنهما ولا رمشة، قد شعرت في الوقت نفسه، وعلى نحو متزايد، بقلبي يَثْقُل، بل إنه - حتى بمعزل عن المرآة، والطريق، والبيت، وبوابة الحديقة - صار يؤلمني.

كان حديثي المعتاد مع نفسي في كل المرات مطوّلًا جدًا، وليس فقط صامتًا، بل وأيضًا – أو هكذا على الأقل كنت أصوّر الأمر لنفسي – خاليًا تمامًا من التعبير، بحيث لا يدركه أحد. أو كنت أصرخ به – وحيدًا في المنزل وفي الوقت نفسه – مرة أخرى هذا في تصوّري – وحدي في الرواق الواسع، صارخًا به من داخلي، في الفرح، وفي الغضب، عادة في صمت، محض صريخ، صيحة مفاجئة. ولكن، حينها، كنت كمُنتقِمٍ، أفتح فمي، وأضمّه، وأزمّه، وأشدّه، وألويه، وأعَوِّجه، ثم أفْغَره، ملتزمًا الصمت، كما هو الحال منذ زمن، من دون قصد شخصي مني، في طقسٍ واضح، صار مع الوقت يمر في إيقاع منتظم أمام المرآة. ثم تحوّل هذا الإيقاع إلى طنين. صار يصدر مني – أنا المنتقِم – غناء، دندنة، بلا كلمات، منذِر بالخطر. كان يبعث وجع القلب. كنت أصرخ في صورتي بالمرآة: "كفى هذا الغناء!" وكانت تمتثل على الفور لأمري، وتقطع هذه الزنّات، بيد أن القلب كان ثقله يتضاعف. حيث لم يعد التراجع ممكنًا، فكنت أصرخ مجددًا: "أخيرًا!"

إلى معركة الانتقام، بقيادتي أنا كفرد وحيد. لأول مرة منذ عقد كامل، أخذت حمّامًا صباحيًّا، أنا الذي كنت طيلة هذا الوقت بالكاد أغتسل، ومن ثم أدخلت الساق ثم الذراع تلو الآخر بتأنّي، في الحُلة الـDior ذات اللون الرمادي الداكن، ومعها القميص الأبيض، وكانت مكوية لتوها، ومفرودة بعناية على السرير، وقد كانت فراشة سوداء سميكة داكنة مطرزة على الجانب الأيمن من القميص، أزحتها عرض إصبع فوق الحِزام إلى مجال الرؤية. ثم حملت حقيبة السفر - التي كان وزنها، أثقل مما بداخلها - على كتفي، وخرجت من البيت، من دون أن أحكم إقفال بابه، كما هي عادتي، حتى في حالات الغياب الطويل.

مع أنني كنت قد عدت منذ ثلاثة أيام فقط، بعد أسابيع من التسكع عبر المناطق الشمالية في مقر سكني الأصلي، الواقع في جنوب غرب باريس. كانت تلك أول مرة يعيدني الحنين، أنا، الذي كان - منذ النهاية المبكرة، إن لم نسمِّه الإنهاء المفاجئ لطفولته، قد ابتعد عن أي شكل من أشكال العودة للمستقَر، وكان يتملص حتى الصمت من مسقط رأسه، والذي كان يفزع من كل عودة إلى أي مُستَقَرٍ أيًّا كان – بل يشعر بانقباض في الجسم وصولاً إلى أدنى وآخر جزء من الأمعاء - لاسيما هناك.

وهذه الأيام، الاثنين أو الثلاثة، بعد عودتي المتأخرة – التي مبدئيًا لم تكن "الأسعد" في حياتي – ("فلتبقَي بعيدا عني أيتها السعادة!") – بل بعد عودتي المتجانسة، قد عززت وعيي بالوجود في المكان والموضع، هذه المرة وإلى الأبد. لم يعد هناك أي شيء يمكن أن يشكك في انتمائي للمكان، بل وأيضًا ارتباطي به. كنت قد سكنتُ إلى المكان، سكونًا متواصلا، وزاد هذا السكون خلال تلك الأيام والليالي، بل كان شعورًا مختلفًا عن العقود الثلاثة الماضية تقريبًا، لم يكن مقتصرًا على البيت والحديقة، فالأمر لم يكن أبدًا متعلقًا بهذين، وإنما بالمكان وحده مجردًا. " إلى أي مدى بالمكان؟ المكان بصورة عامة؟ هذا المكان على وجه التخصيص؟" – "بالمكان."

وقد أضاف إلى سكوني غير المتوقع إلى المكان، إن لم نسمِّه حتى إيماني بالمكان (أو إن أردتم، شعوري بالانتماء المكاني المتأخر، الذي ربما لا يملك فيما عدا ذلك أن يشعر به سوى أطفال بعينهم)، أنه في هذه المنطقة المحيطة، تم الإعلان عن عطلة من العطلات التي زاد عددها على مر السنين، ليس فقط في فرنسا. وليس المقصود العطلة الصيفية الطويلة، بل تلك التي تصاحب عيد الفصح، وهي ليست بالقصيرة أبدًا، فهي كذلك أخذت تطول في عام قصة انتقامي الغريب هذا، حتى وصلت عبر الجسر الزمني إلى يوم الأول من شهر مايو/ آيار.

هكذا ضمِنَت الغيابات- هذه التي تشبه تلك- مكانًا واسعًا، يزيد اتساعًا كل يوم، وفي لحظات كانت تستمر طيلة اليوم، ضمنَت مكانًا لا حدود له على الإطلاق. لمدة نهار كامل، لم أسمع نباح الكلب المزدوج المفاجئ من خلف السياج النباتي، الذي كان يجعل يدي – سواء كانت للتو تكتب كلمات أو أرقام (على شيك، أو إقرار ضريبي) – تنطلق بعيدًا، فترسم خطًا؛ خطًا سميكًا جدًا، بعرض الورقة كلها، ورقة الشيك أو أيا كانت الورقة. فإذا ما نبح كلب، فإنما يكون على مسافة بعيدة جدًا، كما حدث ذات مرة في المساء في الحقل، ما أضاف إلى الوعي، والشعور بالمكان، الناتج عن العودة للمُستَقَرّ، أو العودة المرتقبة على الأقل.

في تلك الأثناء كان عدد الناس في الشوارع أقل، أقل بكثير. وقد كان يحدث ألا أقابل في الشارع، أو في محطة القطارات المكتظة بالركاب عادة، من الصباح وحتى المساء، سوى ثلاثة أشخاص، وعادة ما كان هؤلاء غرباء. ولكن مع ذلك، مَن كان منهم مألوفًا لي، على الأقل شكلًا، ماشيًا كان، أو جالسًا (وعادة ما يكون جالسًا)، بدا غريبًا؟ كأنه شخص آخر. وسواء كان مألوفًا أو غير معروف لي، فقد كنا نتبادل التحية بصفة دورية، وكانت هي التحية الواحدة وفقط. وكثيرًا ما كنت أُسأل عن الطريق أيضًا، وكنت دائمًا أعرف ماذا يوجد أين- أو لنقل في معظم الأحيان. لكن في اللحظة التي أكون فيها على غير دراية بإحدى زوايا المكان، يجعلني الأمر – أنا وغيري – نهبّ لمعرفتها.

طيلة الأيام الثلاثة التي تلت عودتي، ولا مرة سُمِع صوت جلجلة المروحيات، التي كانت عادة تحمل الزيارات الرسمية، من المطار العسكري على هضبة "إيل دو فرانس" إلى قصر الإليزيه في وادي السين، أو العكس. ولا مرة من المهبط هناك، مع رياح الربيع إلينا "نحن" - هكذا فكرت لاإراديًا الآن في نفسي وفي المقيمين معي في المنطقة - ولامرة هبت علينا شظايا الموسيقى الجنائزية، التي عادة ما تُستقبَل بها نعوش الجنود الذين لقوا حتفهم في أفريقيا، أو أفغانستان، أو في أي مكان آخر، والتي يتم تفريغها من طائرات الدولة على المنصة الفخرية المسماة "تَرماك"، استقبالا لها في الوطن الفرنسي الأم. السماء، تتقاطع وحيدة على ارتفاع متوسط، متعرجة، مرفرفة، ومزخرفة (بأول طيور السنونو)، مغمورة بالطلقات النارية (طلقات من نوع مختلف تمامًا، بل أكثر من ذلك، لا تشبه طلقات الوصول المتأخر في عام الصقور وذوات المخالب الأخرى) لجميع أنواع الطيور تقريبًا، وبالإضافة إلى ذلك، غياب آخر، فلا نسرا واحدا من الذي يحلق عادة صيفا بعد صيف، بمفرده في قمة السماء الفارغة، ذلك الذي كنت إزاءه ذات مرة، في منتصف ذلك النهار الصيفي الصامت، إذ جاءني هذا التصور أنني هنا بالأسفل على الأرض أنا الآخر وحيدًا مثله تمامًا، أبعد من هذه المنطقة هنا، أقول وأكتب، بينما جاءتني تلك الرؤية الأقرب إلى الأبوكاليبسية، المروعة بالأحرى

وعلى أي حال: إنني في مرمى هدف هذا النسر العملاق، في الثقب السماوي الأخير المتبقي، هنا على الأرض، الإنسان الأخير.

ثم – من أجل استعادة الشارع المحليّ، والرصيف الحجري تحت نعلَيّ، بعد عرض جوي مثل هذا: بينما لم يُسمَع، خلال تلك الأيام كلها بالإضافة إلى ذلك، ضجيج حاويات القمامة، ولا الضجة والجلبة المعتادة بلا توقف، فإن سُمِع ضجيج، يكون متقطعًا، هذه المرة من خلف سبع شوارع جانبية، وتلك المرة على مرمى ثلاثة أحجار بعد السياج النباتي المستدير الثاني، والآن، بعده بشبه حلم يقظة أو اثنين، الحاوية التي أمام باب بيت الجار التالي، ذلك الذي، على حد علمي لم يتخطَّ حدود البيت والمنطقة خلال عمره الطويل، منذ أن صار شخصًا بالغًا، ولا مرة واحدة: كذلك هنا، مثل هناك في الخارج خلف صناديق القمامة الشحيحة المجاورة، لا فرقعة ولا انهيارات، أثناء التفريغ، كأنها خالية مما يمكن تفريغه، في كل مرة، لا تكاد تحدث شوشرة قصيرةً، ثم حفيفًا، يشبه حسيس اللهب، أو يقارب رنينًا سريًا، ثم في النهاية حركة إرجاع سَلِسة، وذلك أيضًا بفضل عُمّال جمع القمامة المحليين المتميزين، الذين ينضمون إليّ أحيانًا، لشرب كأس في حانة محطة القطارات. وعلى إثر ذلك تتواصل صور أحلام اليقظة التي تتوافق مع اليوم.

مرارًا وتكرارًا في حياتي، كانت تخطر ببالي تلك القصة القديمة المذكورة، على الأرجح في الكتاب المقدس، عن ذلك الرجل، الذي التقطه الرب، أو قوة عظمى ما أخرى، من فروة رأسه، فألقى به من موطنه الأصلي إلى مكان آخر تمامًا – إلى أرض أخرى. وأنا، بالنسبة لشخصي – على عكس بطل القصة، الذي، على ما يبدو لي، كان يفضل البقاء في مكانه وموضعه – كنت لأتمنى أن أقذَف هكذا بعيدًا عن مستقَرّي، بل بالإضافة إلى ذلك، أن أُكمَشَ من فروة رأسي، بفضل قوة رحيمة، تقذف بي عبر الهواء، لتنقلني إلى مسافة بعيدة، إلى مُستَقَرٍ جديد؟ فقط بلا مُستقَر! لا شيء يضاهي أن تُرسَلَ بعيدًا عن الآن وهنا!

خلال تلك الأيام الثلاثة، ما قبل وضع نفسي على أول الطريق إلى حملة الانتقام، ظللت أشد فروة رأسي بيدي، كل ساعة تقريبًا، ولكن ليس لأرفع نفسي عن الأرض ثم أقذف بها، لأمَسمِرَ نفسي خلف الآفاق، وإنما لكي أُرسّخ نفسي، وأوطدَ أواصري مع هذه الأرض، وأقفَ عليها بقدميّ الاثنيتين، حيث أنا الآن وهنا، و... يا لـلعجب، فلم أكن قط، ولا مرة واحدة، من أهل المكان. كم كنت انتف فروة رأسي، كل صباح فور استيقاظي، بقبضة يدي اليسرى، ثم اليمني، أمزقها، وأرجّها، بقوة، ثم أقوى، حتى أكاد اقترف العنف ضد نفسي بنفسي – حتى لأكاد أبدو للناظر، مثل شخص ينزع جمجمته – وأشعر مع ذلك أن هذا عمل مريح، يسري فيّ من الأعلى إلى الأسفل تدريجيًا عبر الفخذين، والركبتين، وحتى أصغر إصبع من أصابع القدم،

عبر الجسد كاملًا، يُشبِعه، ويخترقه، بل وأكثر، يقرع فيه، في صمت، طبول الاستقرار في المكان، التي يتفاقم تهديدها، ساعة بعد ساعة.

تلك الغرابة – فكل بضعة أعوام تضاف غرابة جديدة، ومع ذلك فهي تُفَتِّحُ عينيّ – يناسبها أن يبدو لي بين يوم وآخر، هنا أو هناك، أحد تلك البيوت، والتي تكون عادةً مهجورة خلال هذين الأسبوعين، كأنه مسكون. وكأن هذه قاعدةً خاصة بالمكان، أو حتى قانون محلّيّ، فكنت أجدني في كل مرة بعد المرور على دزينة من النوافذ، المغلقة مصاريعها، وما شابه، أمام بيت، به نافذة واحدة على الأقل - وليس كل النوافذ، ولكن لاسيما نافذة الطابق الأرضي – تفسح المجال للنظر إلى الداخل، إلى غرفة المعيشة وغرفة الطعام. وحيث تكون بالإضافة إلى ذلك الستائر مرفوعة، كأنما بصورة متعمدة، كان ذلك، حتى وإن كانت المائدة غير معدّة، ينم عن شيء من الضيافة، نعم، شيء داعٍ: " تفضّل بالدخول، أيًّا مَن كنت!" بينما كانت تلك الغرف في كل مرة تبدو فارغة. وكان هذا الفراغ تحديدًا هو مصدر الغواية بالاقتراب، كما يفتح الشهية؛ الشهيةً كاملةً. من غير المتصوّر، أن يوجد هنا في أي مكان، في تلك المساحة الظاهرة من الغرفة، من بيت كهذا، شخص – سيّد مالك، أو سيّدة مالكة، أو كلا الزوجين، أو عائلة كاملة - يراقب المرء من زاوية مخفية، سواء كان على هيئة كائنات حية أو ظاهرة على شاشة ما. صحيح أنني في كل مرة كنت أشعر أنني مرئيّ، ولكن بنظرات تتسم بالنية الطيبة واللُّطف. هذه البيوت كانت فقط في تلك اللحظة خالية من البشر: طرفة عين، ثم يتم استدعائي بترحاب، من اتجاه غير متوقع على الإطلاق، سواء بالفرنسية، أو الألمانية، أو العربية (أي شيء، ماعدا "welcome!"). هذا بالإضافة إلى أصوات أطفال، كأنما تأتي من أعلى، من فوق قمم الأشجار.

وذات مرة، في الصباح الثاني أو الثالث – والأخير – من عودتي، ورجوعي إلى المستقر، أمام أحد بيوت الضيافة غير المأهولة تلك، تصاعد دخان مزدوج من موقدين متجاورين من الحديقة الأمامية الصغيرة جدًا، التي نما بها العشب كعشب، بدلا من أن يتخذ شكل نجيل مهذّب أو أي شكل آخر، ومن أسياخ حديدية مصفوفة بعشوائية، تشبه شبكة شواء من العصور القديمة............